تجلّيات الوعي الجمالي في قصيدة المديح الجاهليّة

لميس محمد مأمون أخرس، د. عبد الكريم ضاهر

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة إدلب

الملخّص:

إنّ الوعي الجماليّ في الفنّ عامّة هو نتاج الظروف الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يعيشها الفنّان، وهو شكل من أشكال الوعي المتّصل بإدراك الظواهر الجماليّة في الطّبيعة والفنّ، وتقدّم لنا قصيدة المديح الجاهليّة المثال الأعلى للجميل، المتمثّل في شخصيّة الممدوح، كما رآها الشاعر الجاهليّ، فما يُقال في المديح من صفات ما هو إلا مرآة للواقع وانعكاس عنه، وهذا ما سنؤكّد عليه من خلال دراستنا لشعر ثلاثة نماذج من شعراء الجاهليّة وهم: زهير بن أبي سلمى، والنابغة الذّبيانيّ، والأعشى.

الكلمات المفتاحيّة: الوعي الجمالي، قصيدة المديح، العصر الجاهليّ، زهير بن أبي سلمى، النّابغة الذّبيانيّ، الأعشى.

Manifestations of aesthetic awareness in the pre-Islamic praise poem

Lamees Mohmmad Ma'moun Akhras, D. Abd Alkarem Daher

Department of Arabic Language - the Faculty of Arts and Humanities
Idlib University

Abstract

Aesthetic awareness in art in general is the product of the intellectual, social and political conditions experienced by the artist, and it is a form of awareness related to the realization of aesthetic phenomena in nature and art. Praising is one of the qualities that is only a mirror of reality and a reflection of it, and this is what we will confirm through our study of the poetry of three models of pre-Islamic poets, namely: Zuhair bin Abi Salma, Al-Nabigha Al-Dhubyani, and Al-Asha.

Keywords: Aesthetic awareness, praise poem, pre-Islamic era, Zuhair bin Abi Salma, Al-Nabigha Al-Dhubyani, Al-Asha.

مقدمة: تُعدّ الدّراسات الجماليّة حديثة العهد في ميدان البحوث الأدبيّة، إذ يبحث علم الجمال في أحكام الذوق والإبداع الفنّيّ والنقد الجماليّ، كما يحدّد أبعاد الموضوع الجماليّ طبيعيّا كان أم فنّيّاً، والعلاقة بينهما، وعلاقة كلّ منهما بالإنسان.

إنّ جدّة تناول الدّراسات الجماليّة في الحقل الأدبيّ لا تعني انتفاء وجود تصوّر عن الجمال في الذّهنيّة العربيّة قديماً، إذ إنّ هذه القيم تجلّت في الثّقافة العربيّة في قيم إيجابيّة كالجميل والجليل والبطوليّ، وقيم سلبيّة كالقبيح والمأسوي، وهي مفاهيم جوهرية تتعلّق بموقف العربيّ وسلوكيّاته وما عبّر عنه في مجمل أغراضه الشّعريّة.

والمديح من أشهر الأغراض الشعريّة، وفيه يظهر تصوّر العربيّ عن القيم الإيجابيّة في مرحلة ما من حياة الأمة، وقد خصّ فيها الممدوح ليظهره في أبهى صوره الحسّيّة والمعنويّة، في تعبير واضح عن القيم الجمالية التي تتجلى في شخصية الممدوح.

هدف البحث: يهدف البحث إلى معرفة القيم الجماليّة التي مَدَحَ بها شعراء هذا العصر ممدوحيهم، والوقوف على أكثر الصفات المدحيّة انتشاراً في الشعر الجاهليّ، بغية الوصول إلى نظرة الإنسان الجاهليّ للممدوح المثال، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث من الربط بين المفاهيم الفلسفيّة لعلم الجمال مع النصوص الأدبية الشعرية في العصر الجاهلي.

منهج البحث: يعتمد البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي في استقراء القيم الجمالية التي أفرزها الوعي الجماليّ، بالإضافة إلى وصف الظّروف والأحداث التي عاينها الشّعراء وتأثروا بها.

وقد واجه هذا البحث بعض **الصعوبات**، منها استقراء القيم الجماليّة الذي يتطلّب الوقوف على جميع قصائد المديح لدى الشّعراء الثلاثة، رغم ما تحويه دواوينهم الكبيرة من قصائد مديح كثيرة، لممدوحين كُثُر، إضافة إلى محاولة الفهم الدقيق لظروف العصر الجاهليّ وربطها بالنتاج الأدبي.

تجلّيات الوعي الجمالي في قصيدة المديح الجاهليّة

ليس الوعي الجماليّ عند شعب من الشّعوب وليدَ نفسِه إنّما هو نتاج الوقائع الحياتيّة التي تؤدّي وظيفة مهمّة في تشكيله في زمن ما، لذا كان من الضّروري الوقوف عند هذه الوقائع في دراسة الوعي الجماليّ.

و(تحتلّ مُثُل البشر العليا مكاناً هامّاً في الوعي الجماليّ، إذْ أنّ تصوّراتهم حول ما هو كامل وملائم من النّاحية الجماليّة تنشأ بالضّرورة مع تطوّر المعاناة والذّوق الجماليين، ويجسّد المثل الأعلى الجماليّ ما هو ملائم في شكلٍ مشخّصٍ ـ شعوريّ)[1]

ويتطلب فهمُ ظروف الحياة في العصر الجاهليّ ربطَها بالظّروف الطّبيعيّة وما فرضه المكان الجغرافيّ من خصوصية الواقع آنذاك، فقد عانت شبه الجزيرة العربيّة قسوة الصّحراء، فتركّزت القبائل الكبرى حول موارد الماء بينما نزعت القبائل الأخرى إلى البحث عن الماء والكلأ فاتّسمت حياتهم بالتّنقل الدّائم.

حكمت تأثيرات الطّبيعة هذه الوجودَ السّياسيّ بطابع خاصّ قائم على النّظام القبليّ الذي يدين فيه الجاهليّ بالولاء لقبيلته، فارتباطه بها ارتباط وجود، يتعصّب فيه لنسبه فتأخذه الحميّة في الفخر فيها والذّود عنها، منقاداً لسيّدها جامع المجد والشّرف وصاحب الأمر والنّهي.

حظيت قصيدة المدح في العصر الجاهليّ باهتمام الشّعراء، وتبوّأت من الشّعر مكاناً يوازي أغراضه الأخرى بعد أن نضجت واكتمل نموّها في مستويَيْ البناء الفنّيّ والقيم الجماليّة، وسنفسح المجال فيما يلي لدراسة شعر المديح عند ثلاثة من أكبر شعراء هذا العصر، ونبدأ بشاعر الحكمة زهيرُ بن أبي سُلمى الذي دعا إلى السّلم ونبذ الحرب، لاسيما بعد الحروب الطّويلة بين عبس وذبيان والتي انتهت بالصّلح على يدي الرّجلين الفاضلين هَرَم بن سَنان والحَارِثِ بن عَوْف اللّذين تحمّلا ديات القتلى، فمدحهما زهير في معلّقته بأبيات يشيد فيها بحُسن فعلهما[2].

وباستقراء القيم الجمالية التي مدح بها زهيرُ بنِ أبي سُلمى وجدنا أنّ قيمة الكرم هي القيمة الأولى التي لم تخل قصيدة من التّفصيل فيها، هي الأولى والأكثر انتشاراً[3]، يصوّر فيها الشّاعر ممدوحه بالرّجل الفيّاض المعطاء، الذي يهب سائليه كثيراً، يقول في مدح هَرِمَ بنِ سِنان[4]:

هــو الجــوادُ، الــذي يُعطيــكَ نائلُــهُ عَفْــواً، ويُظْلَــمُ أَحيانــاً، فَــيَظَّلِمُ
وإنْ أَتــاهُ خليــلٌ، يــومَ مَســألةٍ، يقــولُ: لا غائــبٌ مــالِي، ولا حَــرِمُ
القائِــدُ الخَيْــلَ، مَنْكُوبَــاً دَوَابِرُهَــا مِنْهَــا الشَّــنُونُ، ومِنْهَــا الزَّاهِــقُ، الــزَّهِمُ
يَنْــزِعْنَ إِمَّــةَ أَقْــوَامٍ، لِــذي كَــرَمٍ بَحْرٍ، يَفِيضُ عَلى العَافِيْنَ، إِذْ عَدِمُوا
حتّــى تــآوى إلــى لا فــاحشٍ، بَــرَمٍ ولا شــحيحٍ، إذا أصــحابُهُ غَنِمــوا
فَضَّــلَهُ فــوقَ أقــوامٍ، ومجّــدَهُ مــا لــمْ ينــالوا، وإنْ جــادُوا، وإنْ كَرَمُــوا
قَــوْدُ الجِيــادِ، وإصــهارُ المُلُــوكِ، وصَبْــرٌ فــي مــواطنَ، لــو كــانوا بهــا ســئمُوا

وهرمُ بن سنان هو الممدوح الأول عند زهير، والذي يحشد في مديحه ما ارتفع من الصّفات الحميدة، ولمّا كانت قيمة الكرم في الصّدارة بين القيم لدى الشّاعر، جعلها في مديح هرم أكثر تألقاً وأبهى حضوراً، فهو جواد، بحرٌ، يفيض بعطائه ولا يحرم سائله، يقول[5]:

أَغــرَّ، أبــيضَ، فيّــاضٌ، يُفَكِّــكُ عــن أَيْــدِيْ العُنــاةِ، وعَــنْ أَعْناقِهــا، الرِّبَقــا
وذَاكَ أَحْــــزَمُهُمْ رَأْيَــــاً، إذا نَبَــــأٌ مــن الحــوادِثِ، غَــادَى النّــاسَ، أو طَرَقــا
فَضْــلَ الجِيادِ علــى الخَيْلِ البِطــاءِ، فــلا يُعطِــيْ بــذلكَ، ممنونــاً، ولا نَزِقــا
قــد جَعَــلَ المُبْتَغُــوْنَ الخَيْــرَ، فــي هَــرِمٍ، والسَّــائِلون، إلــى أبوابِــهِ، طُرُقــا
إنْ تَلْــقَ يَوْمــاً، علــى علّاتِــهِ، هَرِمَــاً تَلْــقَ السّــمَاحَةَ منْــهُ، والنّــدَى خُلُقــا

إنّ اهتمام الشّاعر بفضيلة الكرم يرجع إلى ما كانت عليه طبيعة الجاهليّ عموماً من تفضيل هذه القيمة في بيئة عاينت القحط والجفاف، فكان أولى بإنسان هذه المرحلة أن يحتفظ بما كسب لنفسه، يدرأ عنه سوء الحال، لكنّ الرّوح الجماعيّة وإحساسَ الفرد بالمعاناة العامّة دفعته إلى التضحية والإيثار بما يملك في سبيل مساندة الآخر، وهذا ما رفع هذه القيمة إلى القمّة، إذ ليس أرفع من أن يبذل الإنسان ما لديه وهو في أمسّ الحاجة إليه.

(إنّ مسألة معالجة الظواهر التي يجسدها الفنان من وجهة نظر جماليّة مسألة مهمة جداً من الناحية العملية لتطوير فنّنا وأدبنا، فمن واجب الفنان أن يعالج مادته "الحياتية" جمالياً، قبل كلّ شيء، إذا أراد لبطله أن يثير الاهتمام من خلال غناه الروحيّ ونشاطه المتنوّع، وعالمه الدّاخليّ المعقّد)[6]

وتأتي قيمة الشجاعة[7] في المرتبة الثانية بعد قيمة الكرم في شعر زهير في تصوير الممدوح، فممدوحه فارس مغوار، وحارس لقبيلته من الأذى والضّيم، ينبري لخصمه في الحروب مسطّرا أعظم بطولاته في ساحات المعارك، يقول زهير في مدح هرم ابن سنان[8]:

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنتَ، إذا ... دُعِيَتْ: نَزَالِ، ولَجَّ في الذّعْرِ

حاميْ الذِّمارِ، على مُحافَظَةِ الـ ... ـجُلَّى، أمينُ مُغَيَّبُ الصّدْرِ

ويَقِيكَ ما وقَّى الأكارِمَ، من ... حُوْبٍ، تُسَبُّ بهِ، ومِنْ غَدْرِ

وإذا بَرَزْتَ بِهِ بَرَزْتَ إلى ... صَافِي الخَليقَةِ، طَيِّبِ الخُبْرِ

وَلَأَنتَ أشْجَعُ، حينَ تَتَّجِهُ الـ ... أَبْطَالُ، من لَيْثٍ، أَبِي أَجْرِي

وَرْدٍ، عُرَاضِ السَّاعِدَيْنِ، حَدِيـ ... ـدِ النَّابِ، بَيّنَ ضَرَاغِمٍ، غُثْرِ

يَصْطَادُ أَحْدَانَ الرِّجالِ، فما ... تَنْفَكُّ أَجْرِيهِ على ذُخْرِ

ويقول في مدح الحارث بن ورقاء[9]:

يُعْطِـي الجَزيـلَ، ويَسْـمُو، وهْـوَ مُتَّئِـدٌ بِالخَيْـلِ، والقَـوْمُ فـي الرَّجْرَاجَـةِ، الجُـوْلِ

وبـالفَوارِسِ، مـنْ وَرْقَـاءَ، قـدْ عُلِمُـوا فُرْسـانَ صِـدْقٍ، علـى جُـرْدٍ، أَبابيـلِ

فـي حوْمَـةِ المَـوْتِ، إذْ ثَابَـتْ حَلَائِـبُهُمْ لا مُقـــرِفِيْنَ، ولا عُـــزْلٍ، ولا مِيْـــلِ

فـي سَـاطِعٍ، مِـن غَيابـاتٍ، ومـن رَهَـجٍ وعَثِيـرٍ، مـن دُقـاقِ التُّـرْبِ، مَنْخُـولِ

وتتوالى القيم الجماليّة وتتعدّد في ديوان زهير بن أبي سلمى، وهي على اختلاف ورودها في القصائد إلّا أنّها تتساوى في الحضور، ولعلّ أبرز القيم التي تلي القيمتين السّابقتين، هي الإشادة بالنّسب والحسب النّبيل[10]، فالممدوح من علية القوم، ورث المجد والشّرف من آبائه وأجداده، ويحرص على بقاء ما ورثه من السّيادة والكرم وفضائل الأخلاق، يقول زهير في مدح سِنان بن أبي حارثةَ المُرّيّ:[11]

إلـى ابْـنِ سَـلمَى، سِـنانٍ، وابْنِـهِ هَـرِمٍ تَنجُـــو بِأَقْتَادْهَـــا عِيديَّـــةٌ، تَخِـــدُ

مُبـــارَكُ البَيْـــتِ، مَيْمـــونٌ نَقِيْبَتُـــهُ جَزْلُ المَواهِبِ، مَنْ يُعْطي كَمَنْ يَعِدُ

لَـــو كَـــانَ يَخْلُـــدُ أَقْـــوامٌ، بِمَجْـــدِهِمُ أَو مَـا تَقَـدَّمَ، مِـنْ أَيَّـامِهِم، خَلَـدُوا

قَـــومٌ أَبُـــوهُمُ سِـــنَانٌ، حـــيْنَ تَنْسِـــبُهُم طَـابُوا وَطَـابَ مِـن الأولادِ مَـا وَلَـدُوا

ويتميّز شعر زهير بن أبي سلمى بإشادته بقيمة السّلام وإن لم تظهر تسميتها بشكل واضح، إلّا أنّنا نستشفّها من خلال ذمّه الحرب ورفض الحقد والعداوة.

ودعوتُهُ إلى السّلم والصّلح ثورة على أعراف المجتمع الجاهليّ، الذي يحثّ على الأخذ بالثّأر وإذكاء نار العصبيّة، يقول[12]:

وَمَـا الحَـرْبُ إلّا مَـا عَلِمْـتُمْ، وَذُقْـتُمُ وَمَـا هُـو، عَنْهَـا، بالحَـديثِ المُـرَجَّمِ

مَتَـــى تَبْعَثُوهَـــا تَبْعَثُوهَـــا ذَمِيمَـــةً وَتَضْـــرَ، إذا ضَـــرَّيْتُمُوهَا، فَتَضْـــرَمِ
فَتَعْـــرُكُكُمْ عَـــرْكَ الرَّحَـــى بِثِفَالِهَـــا وَتَلْقَـــحْ كِشَـــافَاً، ثُـــمَّ تَحْمِـــلْ، فَتُتْـــئِمِ
فَتُنْـــتِجْ لَكُـــمْ غِلْمَـــانَ أَشْـــأَمَ، كُلُّهُـــمْ كَـــأَحْمَرِ عَـــادٍ، ثُـــمَّ تُرْضِـــعْ، فَـــتَفْطِمِ
فَتُغْلِـــلْ، لَكُـــمْ، مَـــا لَا تُغِـــلُّ لِأَهْلِهَـــا قُـــرَى بِـــالعِرَاقِ، مِـــنْ قَفِيْـــزٍ، وَدِرْهَـــمِ

ويشيد زهير بفضيلة الحلم والإعراض عن الجاهل، وفضيلة العدل والحكمة وقول الحقّ، وإغاثة الملهوف وجوار المستجير... وتطول القائمة بمثل هذه القيم الجماليّة ونصوّر لها خير تصوير فيما وصفه شاعرنا لحادثة الصّلح بين عبس وذبيان على يدي الرّجلين الفاضلين هرم بن سنان والحارث بن عوف، وهي إحدى المعلّقات التي تتصدّر شعر الجاهليّة وتُعدّ شاملة لقيمها وفضائلها، لاسيّما في أبيات الحكمة التي يختم بها قصيدته، يقول[13]:

يَمِيْنَـــاً، لَـــنِعْمَ السَّـــيِّدَانِ وُجِـــدْتُما علـى كـلِّ حـالٍ مِـنْ سَـحِيْلٍ، ومُبْـرَمِ
تَـــدَارَكْتُمَا عَبْسَـــاً وذُبْيـــانَ، بَعْـــدَمَا تَفَـــانَوا، ودَقُّـــوا بَيْـــنَهُمْ عِطْـــرَ مَنْشِـــمِ
وَقَـدْ قُلْتمـا: إنْ نُـدْرِكِ السِّـلْمَ، واسِـعاً بِمَـالٍ ومَعْـرُوفٍ، مِـن الأمْـرِ، نَسْـلَمِ
فَأَصْـبَحْتُما، مِنهـا، علـى خَيْـرِ مَـوْطِنٍ بَعِيْـدَيْنِ، فِيْهَـا، مِـن عُقُـوقٍ ومَـأْثَمِ
عَظِيْمَـيْنِ، فـي عُلْيَـا مَعَـدٍّ، وغَيْرِهَـا وَمَـنْ يَسْـتَبِحْ كَنْـزَاً، مـن المَجْـدِ، يَعْظُـمِ
تُعْفَـى الكُلُـومُ، بِـالمِئِيْنَ، فَأَصْـبَحَتْ يُنَجِّمُهَـا مَـنْ لَـيْسَ، فِيْهـا، بِمُجْـرِمِ

وتظهر لنا شخصية زهير متّزنة فاضلة، فهو رجل خَبِرَ الحياةَ في سنيّ حياته الطّويلة، وصقلته التّجارب، وفاضت نفسه بالحكمة التي ترجمها في شعره، حتّى لُقّب (شاعر الحكمة) فابتعد عن المبالغة في القول والإسراف بالمدح، وعدّه عمر بن الخطّاب

رضي الله عنه شاعر الشّعراء (لأنّه كان لا يعُاظل في الكلام وكان يتجنب وحشيّ الشّعر، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه)[14]

ونترك زهيرَ إلى النابغة الذبيانيّ الذي دانت قبيلته بالولاء للمناذرة حكّام الحيرة، وقصد النّابغة ملكها النّعمان، يخصّه في قصائده بالمديح، (فرأى صورة الأبّهة والتّرف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك، وعاد بصور تعبّر عن حبّه لهذه الرّبوع واحترامه لسادتها)[15]، فقرّبه النّعمان ليصبح نديمه في البلاط، وفضّله على غيره من الشّعراء، حتّى أتى يوم أغارت فيه الغساسنة _أعداء المناذرة_ على قبيلة النّعمان، وأسرت منهم الأسرى، فاضطرّ النّابغة إلى مغادرة بلاط النّعمان والذّهاب إلى الملك الغسانيّ عَمْرو بن الحَارِثِ الأصغر يمدحه ويرجو عفوه عن قبيلته، وبقي هكذا زمناً حتى وافت المنيّة الملكَ عمرو بن الحارث وأخاه النّعمان بن الحارث، فعاد النّابغة إلى النّعمان الذي غضب منه، مبرّرا فعلته في اعتذاريّاته وأنّه لايزال وقبيلتَه على عهدهم معه، ويتجلّى لنا في مدائحه للنّعمان كثيرٌ من القيم التي طبعت مدحه بطابع خاص، فلم يكن النّعمان سيّد قبيلة كغيرها من القبائل، بل كان ملكاً لمملكة تدين لقوّة كبيرة وهي: الفرس، وهذا ما أكّد عليه النّقد قديماً، من تمييز مديح الملوك عن غيرهم (وسبيل الشّاعر –إذا مدح ملكاً– أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقيّة، غير مبتذلة ولا سوقيّة)[16]، فلا بدّ لمديحه أن يأتي مناسباً لتلك المكانة الرّفيعة، فـ (لا يجب أن يقصُر عمّا يستحقّ، ولا أن يعطيه صفة غيره)[17]، وأبرز هذه القيم قيمة التميّز والتفرّد التي أسبغها النّابغة على ممدوحه، ليعطيه حقّ المكانة ويشبع في نفسه "أنا المَلَكيّة" التي تسكن كلّ ملك، ولهذا كان للنّابغة مكانه الخاصّ في البلاط دون غيره من الشعراء بعد أن استطاع بذكائه الوصول إلى حظوة الملك، يقول[18]:

أَلَـــمْ تَـــرَ أنَّ اللهَ أَعطـــاكَ سُـــورةً تَـــرى كُـــلَّ مَلِـــكٍ، دُونَهـــا، يَتَذَبـــذَبُ

فإنّـــكَ شَـــمْسٌ، والمُلـــوكُ كَواكِـــبٌ إذا طَلَعَـــتْ لـــمْ يَبْـــدُ مـــنْهُنَّ كَوكَـــبُ

ويقول في إحدى اعتذارياته[19]:

أَلَـمْ تَـرَ خَيـرَ النَّـاسِ أصـبَحَ نَعْشُـهُ ... علـى فِتْيَـةٍ، قـدْ جـاوَزَ الحَـيَّ، سـائِرا

أَلِكْنِـي إلـى النُّعْمـانِ حيـثُ لَقَيْتَـهُ، ... فأهــدى لـــهُ اللهُ الغُيُــوثَ البَــواكِرا

وصَـــبَّحَهُ فُلْـــجٌ، ولا زالَ كعبُـــهُ ... على كلِّ مَنْ عادَى من النّاسِ، ظاهِرا

ورَبَّ عليـــهِ اللهُ أَحسَـــنَ صُـــنْعِهِ ... وكـانَ لـــه، علـــى البَرِيَّـــةِ، ناصِـــرا

فألْفَيْتُـــهُ يَوْمـــا يُبِيْـــدُ عـــدوَّهُ، ... وبَحـــرَ عطـــاءٍ، يَسْـــتَخِفُّ المَعَـــابِرا

يُسبغ النّابغة على النّعمان أوصاف المكانة الرّفيعة التي لم يطلها أحد، فهو شمس تغطّي بنورها بقيّة الكواكب، فقد أعطاه الله الخير الكثير، وجعله منصوراً ظافراً، وبحراً كريماً لا تَزِنُ السّفن شيئا في ميزانه.

إنّ وقوفنا في شعر النّابغة عند قصيدة الاعتذار _ رغم بعض الاختلافات التي تميّزها عن قصيدة المديح_ تجعلنا نستشفّ القيم الجماليّة التي قد يوجهها شاعرٌ لملك، وقد تدلّنا على النّظرة الفنيّة التي يحتفظ بها إزاءه، لذلك آلينا دراسة معاني الاعتذار عند النّابغة مع طغيانها على معاني المديح في ديوانه لاحتوائها على المضامين الجماليّة التي نستقرؤها في وعي العربيّ للجمال، وفي خطاب الشّعراء أمام سلطان الملوك، يقول مادحا إيّاه[20]:

وَمَـنْ يَغْـرِفْ مِـن النُّعمـانِ سِـجْلاً ... فَلَـيْسَ كَمَـنْ يُتَيَّـهُ فـي الضّـلَالِ

فَـــلَا عَمْـــرُ الـــذي أُثْنِـــي عَلَيْـــهِ ... وَمَـــا رَفَـــعَ الحَجِـــيْجُ إلِـــى إلالِ

لَمَـــا أَغْفَلْـــتُ شُـــكْرَكَ، فَانْتَصِـــحْنِي ... وَكَيْـفَ، وَمِـنْ عَطَائِـكَ جُـلُّ مَـالِي

وَلَـــوْ كَفِّـــي اليَمِـــيْنُ بَغَتْـــكَ خَوْنَـــاً ... لَأَفْـــرَدْتُ اليَمِـــيْنَ مِـــنَ الشِّـــمَالِ

وَلَكِـــنْ لَا تُخَـــانُ الـــدَّهْرَ عِنْـــدِي ... وَعِنْـــدَ اللهِ تَجْزِيَـــةُ الرِّجَـــالِ

لَـــهُ بَحْـــرٌ يُقَمَّـــصُ بالعَـــدَوْلِي ... وَبِـــالحُلُجِ المُحَمَّلَـــةِ الثِّقَـــالِ

وَهُـــوْبٌ للمُخَيَّسَـــــةِ النَّـــــوَاجِي عَلَيْهَـــا القَانِئَـــاتُ مِـــنَ الرِّحَـــالِ

تتجلى في الأبيات بعض القيم الأخرى كالأمان والرّعاية التي يتلقّاها المرء في جوار النّعمان ويُلمِّح بأنّ لجوءه إلى الغساسنة كان ضرباً من الضّياع، وتظهر قيمة الكرم في بيانه عطاء الملك له، وأنّه يجود بما تمتلئ به سفنه المحمّلة بالجياد المروّضة، سريعة العدو.

واللّافت أنّ النّابغة الذّبيانيّ مدح ملوك الغساسنة بقيمة التميّز التي كان يمدح بها النّعمان بن المنذر سابقاً، فهي قيمة ثابتة في مديح الأعشى للملوك، وتعكس وعيه الجمالي في خطابه إيّاهم.

فإذا نظرنا إلى الشّقّ الآخر من مديح النّابغة؛ المخصّص لملوك بني غسّان، لم نجد اختلافاً كبيراً في القيم عمّا جاء في مديحه للمناذرة، فالغساسنة أيضا ملوك وأبناء ملوك، تربّعوا على عرش الحُكم فنالوا الحظوة في المديح حين لجأ إليهم النّابغة في أمر قومه، فتتجلّى قيمة التّفرد في مدحه العامّ لهم، يقول[21]:

لا يُبْعِـــدُ اللهُ جيرانـــاً، تَـــرَكْتُهُمُ مثْـلَ المصَـابيْحِ، تجلُـو لَيْلَـةَ الظُّلَـمِ

لا يَبْرَمُـونَ، إذا مـــا الأفْـقُ جَلَّلَـــهُ بَـرْدُ الشّـتاءِ، مـن الإمحـالِ، كَـالأدَمِ

هُـمُ الملـوكُ، وأبْنـاءُ المُلـوكِ، لَهُـمْ فَضْلٌ على النّاسِ، في اللأْواءِ والنِّعَمِ

أَحـــلامُ عـــادٍ، وأجْســـادٌ مُطَهَّـــرَةٌ مـــن المعقَّـــةِ والآفـــاتِ والإثَـــمِ

يُلقي الشاعر قصيدته حين ارتحل من ديار الغساسنة، ويسأل الله ألّا يُبعدهم لما لاقاه من الخير في ديارهم، فكانوا النّور الذي يجلو الظّلام، بَيدَ أنّ ما يميّز مديحه الغساسنة أنّه أوّلاً، مديحٌ جماعيّ، فيشيد في فضائلهم عامّة دون تمجيد شخص بعينه، إلّا ما ندر في مديحه الملك الغسّانيّ، وثانياً، أنّ القيمة الغالبة في مديحه لهم هي الشّجاعة والقوّة، فيصوّر بأسهم في القتال، وبلاءهم في الحروب، وتنكيلهم بالأعداء، يقول[22]:

إذا مـا غَـزَوْا بـالجيشِ حلّـقَ فـوقَهُمْ عَصَـائِبُ طَيْـرٍ، تَهْتَـدِي بِعَصَـائِبِ
يُصـاحِبْنَهُمْ حتّـى يُغِـرْنَ مُغَـارَهُمْ مـن الضّـارياتِ، بالـدّماءِ، الـدّوارِبِ
فَهُـمْ يَتَسِـاقَوْنَ المَنِيّـةَ بيـنَهُمْ بأيـدِيهِم بِـيْضٌ، رِقَـاقُ المَضـارِبِ
ولا عَيْـبَ فـيهِمْ غيْـرَ أنَّ سُـيوفَهُمْ، بِهِـنَّ فُلُـولٌ مـن قِـرَاعِ الكتَائِـبِ

قد يرتبط سبب هذا التّصوير بالغاية التي قصد بها النّابغة بلاط الغساسنة، وهي العفو عن قومه وفكّ الأسرى الذين احتجزوهم في إحدى غزواتهم، وكأنّ هذا الشّعر إقرارٌ منه على بطولاتهم وبسالتهم، وأنّه ما كان ينبغي لقومه أن يجابهوا جيشهم القويّ، فمدحه للملوك لم يقلّل من شأنه، فهو يسعى في أمر قبيلته، ويصرّح بذلك قائلا[23]:

حَبَـوْتُ بِهَـا غَسَّـانَ إِذْ كُنْـتُ لَاحِقَـاً بِقَـوْمِي، وَإِذْ أَعْيَـتْ عَلَـيَّ مَـذَاهِبِي

وتندر القصائد التي مدح بها الملكَ الغسانيّ النّعمان بن الحارث مديحاً خاصّاً، فهو خير بني معد ملكاً وشرفاً، ولولاه يضيع الخير والسّيادة في بني غسّان، وهو الوحيد المتفرّد بالحكم المستحقّ له[24]:

وإنْ يَرْجِـعِ النّعمـانُ نفـرَحْ ونَبْـتَهِجْ ويـأْتِ مَعَّـدًّاً مُلْكُهَـا ورَبِيعُهـا
ويَرْجِـعْ، إلـى غَسّـانَ، مُلْـكٌ وسُـؤدُدٌ وتِلْـكَ المُنـى لـو أَنّنـا نَسْـتَطِيعُها
وإنْ يَهْلَـكِ النّعمـانُ تُعْـرَ مَطِيّـةٌ ويُلْـقَ، إلـى جَنْـبِ الفنـاءِ، قُطُوعُهـا

فوجود النعمان على عرش المُلك هو وجود للغساسنة وذهابه يعني ضياعها.

وإن كانت قيمة التميّز والتّفرد بالحكم هي القاسم المشترك في مديحه للنعمانَيْن؛ الغسانيّ والمناذريّ، لأنّهما في نهاية المطاف أسياد؛ يُطلق على كلّ منهما لقب (ملك)، إلّا أنّها تبقى في مديحه النّعمان بن المنذر أقوى معنىً وأصدق شعوراً وأكثر حضوراً، ولعلّ سبب هذا أنّ ولاء النّابغة للمناذرة كان بسبب ولاء قبيلته له منذ البداية، ثمّ ارتفع

النّابغة عند النّعمان إلى مكانة عالية أولاً، ولأنّه اضطرّ ثانياً إلى مديح الغساسنة اضطراراً، فوجوده في بلاط المناذرة أصل، ولجوؤه إلى الغساسنة طارئ، ويشهد بهذا رحيله عنهم بعد وفاة الملك عمرو بن الحارث وأخيه النّعمان، ثم عودته إلى خليله الأوّل حيث ينبغي له أن يكون، في رعاية النّعمان بن المنذر.

ولا يمكننا أن نتعمّق في دراسة قصيدة المديح الجاهليّة وأن نعطي هذا البحث حقّه ما لم نتوقّف مليّاً عند شعر صاحب المدحيّات الأوّل في هذا العصر ألا وهو الأعشى الكبير، الذي عاش في أواخر أيام الجاهليّة وبداية الإسلام، الأعشى الذي جال البلاد شرقاً وغرباً، ينزل ديار ساداتها وأمرائها ويمدحهم على اختلاف ثقافاتهم وألوانهم، وينال على مدحه العطاء الكثير، فامتلك فلسفة خاصّة في فهم الحياة والعيش فيها، تقوم على اللّذة والإسراف فيما طاب، فأسرف في الخمر والنّساء، وأنفق ماله فيهما، ما جعله يقصد بلاط الممدوحين، ويسألهم المال والنوال، فعدّه ابن سلام أوّل من استجدى بشعره[25]، ولم يختصّ مديحه بشخص واحد، إنّما تعدّد ممدوحوه بتعدّد وجهاته ومقاصده، أمّا قصيدته فاتّسمت بالطّول في جميع أغراضها، فيُسهب في الغزل، ويسهب في وصف الخمر، ويفصّل في ذكر الرّحلة، حتى إذا جاء إلى المديح بسط فيه من نفسه ما تجاوز فيه الأجزاء الأُوَل، فإذا الممدوح مادّة شعريّة يستقرئ فيها الباحث الأفكار ولا ينتهي، حيث يتعمّق الشّاعر بذكر أحوال هذه الشّخصيّة النّفسيّة وتفاصيلها الخَلقيّة والخُلقيّة، ويمجّد في القيم التي تتحلّى بها، ووصف أقوالها وأفعالها، وصفَ المُعجَب المادح، وهو في ثنايا ذلك يسأل العطاء أو يستزيدّه.

وتتشابك القيم الجمالية في مديح الأعشى بين جميع الشّخصيات، وتسير في خطّ واحد، بدءاً من أكثرها تداولاً حتى أقلّها، وهي قيم تعارف عليها المجتمع الجاهليّ، ثمّ فرضها على القصيدة العربية، كما تتميّز كلّ شخصيّة من شخصيات الممدوحين عن غيرها بقيم تميّزها، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل عند دراسة القيم الجماليّة في شعر الأعشى وأولها قيمة الكرم[26]، فقد كان لهذه القيمة خصوصيّة عند الأعشى تزيد على أنّها من أكثر

القيم تعزيزاً في المجتمع الجاهليّ، ذلك أنّه اتّخذها وسيلة للتقرّب من الممدوح، واستزادة طبيعة الكريم فيه، حتى يبلغ غايته، وينال العطاء الذي يريد، يقول في مدح هَوذة بن عليّ الحنفيّ[27]:

وإنَّ امْــرَأً قــدْ زُرْتُــهُ قبْــلَ هــذِهِ ... بِجَــوٍّ لَخَيْــرٌ منْــك نَفْسِــاً ووالِــدَا

تَضَــيّفْتُهُ يومــاً فَقَــرّبَ مَقْعَــدِي ... وَأَصْــفَدَنِي علــى الزَّمَانَــةِ قَائِــدَا

وَأَمْتَعَنِــي علــى العَشَــا بوَلِيْــدَةٍ ... فَأُبْــتُ بِخَيْــرٍ مِنْــكَ يَــا هَــوْذُ حَامِــدَا

ومَــا كَــانَ فِيْهَــا مِــنْ ثَنَــاءٍ وَمِدْحَــةٍ ... فَــأَعْنِي بِهَــا أَبَــا قُدَامَــةَ عَامِــدَا

يَــرَى البُخْــلَ مُــرَّاً والعَطَــاءَ كَأَنَّمَــا ... يَلَــذُّ بِــهِ عَــذْباً مَــنَ المَــاءِ بَــارِدَا

يشيد الشّاعر بكرم ممدوحه وحسن ضيافته، وهو في القصيدة ذاتها يهجو الحَارِث بن وَعْلَةَ، ويذمّ بخله، ويقارنه بعطاء هَوْذَةَ بن عَلِيّ الذي أكرم وفادته، وأعطاه قائداً يعينه في شيخوخته، وجارية تخدمه.

يقول في مدح قيس بن معد يكرب[28]:

وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِخَيْرِ مَنْ وَطِئَ الحَصَى ... قَــيْسٍ، فَأَثْبَــتَ نَعْلَهَــا وَقِبَالَهَــا

مَــا النِّيــلُ أَصْــبَحَ زَاخِــراً مِــنْ مَــدِّهِ ... جَــادَتْ لَــهُ رِيْــحُ الصَّــبَا فَجَــرَى لَهَــا

زَبَــدَاً بِبابِــلَ فَهــوَ يَسْــقِي أَهْلَهَــا ... رَغَــدَاً تُفَجِّــرُهُ النَّبِــيْطُ خِلَالَهــا

يَوْمَــاً بِــأَجْوَدَ نــائِلَاً مِنْــهُ إذَا ... نَفْــسُ البَخِيْــلِ تَجَهَّمَــتْ سُــؤْالُهَا

الوَاهِــبُ المِائَــةَ الهِجَــانَ وعَبْــدَهَا ... عُــوْذَاً تُزَجِّــيْ خَلْفَهَــا أَطفَالَهــا

وَسَــعى لِكِنْــدَةَ غَيْــرَ سَــعْيِ مُوَاكِــلٍ ... قَــيْسٌ فَضَــرَّ عَــدُوَّهَا وَبَنَــى لَهــا

وَأَهــانَ صَــالِحَ مَالِــهِ لِفَقِيرِهــا ... وَأَسَــى وَأَصْــلَحَ بَيْنَهَــا وَسَــعى لَهَــا

والملاحَظُ في مدح قَيْسِ بن مَعْدِ يَكْرِبَ خصوصاً أنّ الشّاعر لا ينسى له معروفه حين نزل ببلاطه، فأحسن وفادته، وبذل له مائة من الإبل الضّخام وفرساً جواداً عدّاءً، ويذكر ذلك في جميع قصائده التي مدحه بها، حتى أنّنا نستدلّ على الممدوح أنّه قيس من هذا الوصف الذي يتكرّر في مدحه دائما، يقول[29]:

هُـــو الوَاهِـــبُ المَائَـــةَ المُصْـــطَفَا ... ةَ كالنَّخْـــلِ طَـــافَ بِهَـــا المُجْتَـــرِمْ

وَكُـــلٌ كُمَيْـــتٍ كَجِـــذْعِ الخِصَـــا ... بِ يَـــرْدَى عَلَـــى سَـــلِطَاتٍ لُـــثُمْ

سَـــــنَابِكُهُ كَمَـــــدَارَى الظِّبَـــــا ... ءِ أَطْـــرَافُهُنَّ علـــى الأرضِ شُـــمْ

وإذا ما تركنا قيمة الكرم بما تحتويه من معان وتشبيهات جميلة وجدنا أنّ القيمة التي تليها في المديح عند الأعشى هي قيمة الشّجاعة[30]، فبعد أن يفرَغَ الشّاعر من وصف عطاء الممدوح وبذله ينصرف إلى تصوير شدّة بأسه في الحروب وقوّة عتاده من الخيل والفرسان والأسلحة، وحسن بلاء جنوده في ساحات المعارك التي تتطاير فيها السّهام والرّماح تخترق صدور الأعداء وترديهم صريعي الأرض حتى يظفروا بالنصر الذي أرادوا، ويعودوا إلى ديارهم بالغنائم والسبايا، فها هو ذا الأعشى يمدح الأَسْوَدَ بن المنذر حين أغار على بني أسدٍ وبني ذُبيان، قائلاً[31]:

أَنـتَ خَيْـرٌ مِـنْ أَلْـفِ أَلْـفٍ مـن القَـوْ ... مِ إذَا مَـــا كَبَـــتْ وُجُـــوهُ الرِّجَـــالِ

وَلِمِثْـــلِ الـــذي جَمَعْـــتَ مِـــنْ العُـــدَّ ... ةِ تَـــــأبَى حُكُومَـــــةَ المُقْتَـــــالِ

جُنْـــدُكَ التَّالِـــدُ العَتِيـــقُ مِـــن الـــ ... سَّـــاداتِ أَهْـــلِ القِبَـــابِ والآكَـــالِ

غَيْـرُ مِيْـلٍ وَلا عَـوَاوِيرَ فـي الهَيْـ ... جَـــــى وَلا عُـــــزْلٍ ولا أكْفَـــــالِ

وَدُرُوعٌ مَـن نَسْـجِ دَاوودَ فـي الحَـرْ ... بِ وُسُـوقٌ يُحْمَلْـنَ فَـوْقَ الجِمَـالِ

مُلْبَسَـاتٌ مِثْـلَ الرَّمَـادِ مـن الكُـ ... ـرَّةِ مـن خَشْـيَةِ النّـدى والطّـلالِ

لامْـــرِئٍ يَجْعَـــلُ الأَدَاةَ لِرَيْـــبِ الـــ ـــــدّهْرِ لا مُسْـــــنَدٍ وَلَا زُمَّـــــالِ
كـــلُّ عـــامٍ يَقُـــوْدُ خَـــيْلاً إلـــى خَيْـــ ـــلٍ دِفَاقَـــاً غَـــدَاةَ غِـــبِّ الصِّـــقَالِ

"ويقول الرّواة إنّ الأسود حين أغار على الحليفتين "أسد" و"ذبيان" أصاب نِعَماً وأسرى وسبايا من بني سَعْدِ بن ضَبِيعَةَ قوم الأعشى، وكان الأعشى غائبا عن الحيّ، فلمّا قدم وجد الحيّ مباحاً. فأقبل على الأسود، وأنشده هذه القصيدة، وسأله أن يهب له الأسرى ويَحْمِلَهُمْ، ففعل"[32].

ويصف الأعشى جيش إياسَ بن قَبِيْصَةَ الطَّائيّ[33] الذي وَلِيَ الحيرةَ بعد النّعمان بن المنذر، ويخاطب أعداء ممدوحه بعد أن نزل به المرض فتجرّؤوا عليه، ويعدهم أنّه سيقدر عليهم عندما يشفى، يقول[34]:

لَيَلْتَمِسَـــــنْ بِلَادَكُـــــمُ بِمَجْـــــرٍ يُثِيـــــرُ بِكُـــــلِّ بَلْقَعَـــــةٍ قَتَامَـــــا
عَـــريضٍ تَعْجِـــزُ الصَّـــحراءُ عنـــهُ وَيَشْـــرَبُ قَبْـــلَ آخـــرِهِ الجِمَامَـــا
يقُـــودُ المَـــوتَ يَهْدِيـــهِ إيَـــاسٌ عَلـــى جَـــرْدَاءَ تَسْـــتَوْفِي الحِزَامَـــا
تُبَـــارِي ظِـــلَّ مُطَّـــرِدٍ مُمَـــرٍّ إذا مـــا هُـــزَّ أرْعَـــشَ واسْـــتَقَامَا
أخُـــو النَّجْـــدَاتِ لا يَكْبُـــو لِضُـــرٍّ ولا مَـــرِحٌ إذا مَـــا الخَيْـــرُ دَامَـــا
إذا مَـــا سَـــارَ نَحْـــوَ بِـــلادِ قَـــوْمٍ أَزَارَهُـــمُ المَنِيَّـــةَ والحِمَامَـــا
تَـــرُوحُ جِيَـــادَهُ مِثْـــلَ السَّـــعَالِي حَـــوَافِرِهُنَّ تَهْتَضِـــمُ السِّـــلامَا
كَصَـــدْرِ السَّـــيْفِ أَخْلَصَـــهُ صِـــقَالٌ إذا مـــا هُـــزَّ مَشْـــهُوراً حُسَـــامَا

وتأتي قيمة الشرف في المرتبة الثّالثة في قيم المديح عند الأعشى[35]، إذ لا يدع مناسبة في الثناء على ممدوحه إلّا وخصّه بمعاني المجد والشّرف والإعجاب بنَسَبِه الرّفيع، فها هو ذا يُقِرّ بالسُّؤْدُدِ والمجد الذي تحلّى به قيسُ بن مَعْدِ يَكْرِبَ والذي ورثه أباً عن أب[36]:

نَمَـــاهُ الإِلَـــهُ فَـــوْقَ كُـــلِّ قَبيلَـــةٍ أَبَـــاً فأَبَـــاً يـــأبَى الدَّنِيَّـــةَ أَيْنَمَـــا
ولَـــمْ يَنْـــتَكِسْ يَوْمَـــاً فَـــيُظْلِمْ وَجْهَـــهُ لِيَرْكَـــبَ عَجْـــزَاً أَوْ يُضَـــارِعَ مَأْثَمَـــا
وَلَـو أنَّ عِـزَّ النَّـاسِ فـي رَأسِ صَـخْرَةٍ مُلَمْلَمَـــةٍ تُعْيِـــي الأَرَحَّ المُخَـــدَّمَا
لَأَعْطَـاكَ رَبُّ النَّـاسِ مِفْتَـاحَ بَابِهَـا وَلَـو لَـمْ يَكُـنْ بَـابٌ لَأَعطَـاكَ سُـلَّمَا

فلو كان المجد قد رُفع في صخرة ملساء لأعطاه الإله مفتاح هذه الصّخرة، أو منحه سلّماً يرقى به إليها، فهو الجدير بهذه المنزلة لِعظيم شمائله وهو من بني معاوية الأكرمين، فمَنْ يتبع أمرَه يغنم، ومنْ يأخذ برأيه يجد الحكمة والصواب[37]:

ولَكِـــنَّ رَبِّـــي كَفَـــى غُرْبَتِـــي بِحَمْـــدِ الإِلَـــهِ فَقَـــدْ بَلَغَـــنْ
أَخَـــا ثِقَـــةٍ عَالِيـــاً كَعْبُـــهُ جَزِيْـــلَ العَطَـــاءِ كَـــرِيمَ المِـــنَنْ
كَرِيمَـــاً شَـــمَائِلُهُ مِـــنْ بَنِـــي مُعَاوِيَـــةَ الأَكْـــرَمِيْنَ السُّـــنَنْ
فـــأَنْ يَتْبَعُـــوا أَمْـــرَهُ يَرْشُـــدُوا وإِنْ يَسْـــأَلُوا مَالَـــهُ لَا يَضِـــنْ
وَإِنْ يُسْتَضَـــافُوا إِلَـــى حُكْمِـــهِ يُضَـــافُوا إِلَـــى هَـــادِنٍ قَـــدْ رَزَنْ

ويطول الحديث في التّفصيل في القيم التي تبنّاها شعر الأعشى والتي كانت مرآة لعصره، ثمّ ترسّخت في ديوانه، منها حسن الجوار، وإغاثة الملهوف، ونصرة المستغيث، والوفاء بالعهد، والعفّة وصون العرض، والحكمة والوقار وسداد الرأي، وما لا يتّسع المجال لذكره تفصيلاً، لكنّنا نُجمِل لذلك كلّه بأبيات تشمل أخلاق الجاهليّ التي جسّدها الممدوح في شعر الأعشى، فتتمثّل أمامنا الصورة المثلى للقيم الجماليّة في هذا العصر، ونراها مثلاً في مديحه للأسود بن المنذر، قائلا[38]:

لَا تَشَـــكَّيْ إِلَـــيَّ وَانْتَجِعِـــي الأَسْـــ ـــوَدَ أَهْـــلَ النَّـــدى وأَهْـــلَ الفِعَـــالِ
فَـرْعُ نَبْـعٍ يَهْتَـزُّ فـي غُصْـنِ المَجْـ ـــدِ غَزِيـــرُ النَّـــدى شَـــديدُ المِحَـــالِ

عِنْـدَهُ الحَـزْمُ والتُّقَـى وَأَسَـا الصَّـرْ ... عِ وَحَمْـــلٌ لِمُضْـــلَعَ الأثْقَـــالِ

وَصِـــلَاتُ الأَرْحَـــامِ قَـدْ عَلِـمَ النَـا ... سُ وَفَـكَّ الأَسْـرَى مِـنَ الأَغْـلَالِ

وَعَطَـــاءٌ إذا ســـأَلْتَ إذا العُـــذْ ... رَةُ كَانَـــتْ عَطِيَّـــةَ البُخَّـــالِ

وَوَفَـــاءٌ إذا أَجَـــرْتَ فَمَـــا غُـــرْ ... رَتْ حِبَـــالٌ وَصَـــلْتَهَا بِحِبَـــالِ

أَرْيَحِـــيٌّ صَـــلْتٌ يَظَـــلُّ لَـــهُ القّـــوْ ... مُ رُكُـــوداً قِيَـــامَهُمْ لِلهِـــلَالِ

إنْ يُعَاقِـبْ يَكُـنْ غَرَامَـاً وَإِنْ يُعْـــ ... ـــطِ جَـــزِيلاً فَأَنَّـــهُ لَا يُبَـــالِي

فَـأَرَى مّـنْ عَصَـاكَ أَصْـبَحَ مَخْـذُوْ ... لاً وَكَعْـبُ الـذي يُطِيعُـكَ عَـالِي

أنـتَ خَيْـرٌ مِـنْ أَلْـفِ أَلْـفٍ مِـنَ القَـوْ ... مِ إذَا مَـــا كَبَـــتْ وُجُـــوهُ الرِّجِـــالِ

تتجلى في الأبيات قيم جماليّة يُسبغها الشّاعر على ممدوحه صاحب الكرم والمجد الذي يجمع بين الحزم واللّين، ويصل الأرحام، ويفكّ الأسير العاني، يعطي حين يكفّ الناس، ويفي حين يُجير، فتكونَ منه في مأمن، ترتاح له النّفس وتهابه في آنٍ معاً لنفاذ أمره ومضيّه، فعقابه شديد وعطاؤه جزيل، وهو خير الرّجال إذا ما اشتدّ الفزع وأبطأ القوم.

إنَّ (إدراك صفات العالم الجماليّة وتجسيدها فنّياً أمر مرهون دائماً بمقدار فهم الإنسان للعالم وبمقدار سيطرته عليه ودرجة تملّكه له، وطبيعة هذا التّملّك)[39]

وواضحٌ أنّ الأعشى لا يترك مناسبة تدنيه من ممدوحه وترفع من شأنه عنده إلا سلك فيها المسالك، تشهد بذلك كثرة القيم التي يحشدها في قصائده لاسيّما قيمة الكرم _كما أسلفنا_ التي تجعل ممدوحه يُجزِل إليه بالعطايا، وهذه هي غاية الأعشى في أغلب مدائحه، وإليها سعى بين البلاد متنقّلاً بين العراق واليمامة واليمن، طارقاً أبواب الملوك، صائغاً في مدائحهم المطوّلات حتى ينالَ ما يناله من المال والإبل والهدايا، وهو لا يُخفي تكسّبه في شعره، بل يصرّح بذلك كثيراً في قصائده[40]:

إلــى هَـوْذَةَ الوَهَّـابِ أَهْـدَيْتُ مِـدْحَتِي أُرَجِّــي نَــوَالاً فَاضِــلاً مِــنْ عَطَائِكَــا

تَجَــانَفُ عَــنْ جُــلِّ اليَمَامَــةِ نَــاقَتِي وَمَــا قَصَــدَتْ مِــنْ أَهْلِهَــا لِسِــوَائِكَا

ولن يتوانى الملوك طبعاً في بذل المال وإكرام الشّعراء مقابل قصائد المديح التي ترفع شأنهم، وتُبقي ذكرهم، وتخلّد محامدهم، فيشترون المديح بأغلى الأثمان، وفي هذا يقول الأعشى في مدح إياس بن قبيصة[41]:

تَشْــتَرِي الحَمْــدَ بِــأَغْلَى بَيْعِــهِ وَاشْــتِرَاءُ الحَمْــدِ أَدْنَــى لِلــرَّبَحْ

ويقول في مدح قيس بن معد يكرب[42]:

عــدِّ هَــذَا فِــي قَــرِيضٍ غَيْــرِهِ وَاذْكُــرَنْ فِــي الشِّــعْرِ دِهْقَــانَ الــيَمَنْ

بِــأَبِي الأَشْــعَثِ قَــيْسٍ إِنَّــهُ يَشْــتَرِي الحَمْــدَ بِمَنْفُــوسِ الــثَّمَنْ

وتتكرّر جملة (يشتري الحمد) في مواضع عدّة في ديوانه وكأنه يقصد أنّ الشّعر بات حقّاً سلعة تُباع وتُشترى، وتُنظَمُ فيها المعاني والأفكار مقابل منفعة ماديّة غالباً أو مصلحة خاصّة، وكأنّ شعر المديح أصبح في زمن الأعشى مهنةً كغيرها من المهن تُقال للكسب فقط دون النّظر إلى استحقاق الممدوح لكلّ هذه الإشادة والثّناء.

خاتمة:

إنّ بحثنا هنا بحث في القيم الجماليّة التي تبنّاها شعر المديح في الجاهليّة، والتي تعكس وعي الشّاعر الجاهليّ للجمال حين استمدّه من معاينة الواقع ومتابعة تفاصيله، متابعة امتزجت برؤيته العاطفيّة والفكريّة التي تعتلج في نفس كلّ فنان توّاق للجمال، مندفع للتّعبير عنه.

إنّ الإبداع الفنّيّ عمليّة معقّدة، هي أشبه بسلسة متداخلة الحلقات، تبدأ من الواقع ومعايشته، ثم تخضع للانفعال الفنّيّ في نفس الفنّان الذي يضيف إليها من خياله وحسّه

ما يجعله يعبّر عن هذا الواقع تعبيراً جماليّاً ويكسوه رداءً فنّيّاً، يجعل متذوّقي الأدب مطّلعين على طبيعة حياة الشّاعر من جهة، مستمتعين بجمال التّجربة الفنّيّة التي قدّمها من جهة أخرى، (وهذا يعني أنّنا في التّجربة أو في الخبرة الجماليّة نضيف إلى العمل المحسوس جانباً مصدره قدراتنا الخياليّة وهذا هو الجانب الذّاتيّ المكمّل للجانب الموضوعيّ المستمدّ من عناصر العمل الفنّيّ)[43]

حتى إذا أردنا دراسة خصوصيّة شعر المديح لم نبتعد عن ذلك كثيراً، فما هو إلّا تعبير عن القيم الجماليّة في المجتمع، والشّاعر حين يمدح إنّما يُذكي هذه القيم ويرفع شأنها، كما يرفع شأن أصحابها، فقدّس العربيّ الكرم فمدح به، وافتخر بالشّجاعة فأشاد بها، ودافع عن شرفه فأثنى عمّن يحميه.

وقد شهدت قصيدة المدح تطوّراً كبيراً على يَدَي الشّاعر زهير بن أبي سلمى، وذلك في اهتمامه بشعر المديح فنّيّاً وجماليّاً، وتَقَصُّدِهِ الإشادة بجميل القيم ونشرِها في المجتمع الذي ابتعد حيناً عن طريق الوحدة والسّلم واشتعلت فيه نيران الحرب والثّأر والتفرقة.

وازدادت العمليّة الفنّيّة إبداعاً على يَدَيْ الأعشى، الذي قال في معاني المدح وأطال، وأكثر من القيم وفصّل فيها، حتى تَعدَّى غالباً فكرة المناسَبَة، وراح يمدح دون ارتباط مديحه بحادثة معيّنة، فجعل الشّعر مهنة يتكسَّب منها، ويجول فيها طول البلاد وعرضها يبغي النّوال والعطاء، وأصبحت قصيدة المديح عند الأعشى غايةً بذاتها، أو بالأحرى بات العطاء هو الغاية، والشّعر وسيلة إليه.

وبقصيدة الأعشى ينتهي العصر الجاهليّ ويأتي الإسلام برؤية جديدة أدّت إلى تطوّر كثير من القيم.

إنّ القيم الجماليّة في قصيدة المديح الجاهليّة تميل إلى الاستقرار والثّبات، وكأنّ العصر لم يؤكّد هذه القيم ويحتفظ بها فحسب، بل احتفظ بترتيبها أيضاً، وأوّلها كما رأينا قيمة الكرم، وتتقاطع هذه القيمة غالباً مع جميع قصائد المديح، فتمثّل عاملاً مشتركاً

وأوحدَ بينها، وكأنّها من مسلّمات القيم عند الشّاعر الجاهليّ، وإنْ داخلتها الغايات الشّخصيّة أحياناً كما جاء في مديح الأعشى، الذي سعى من خلاله إلى الكسب والمال، لكنّها تظلّ تعكس وعي العربيّ لأهميّة هذه القيمة في الصفات المثالية التي تكتنف الممدوح، يشهد بذلك أنّ زهير بن أبي سُلمى قدّم المدح بهذه القيمة على غيرها أيضاً رغم أنّه لم يسعَ وراء المال والعطاء في مديحه.

وتليها قيمة الشّجاعة، وتتنافس مع سابقتها أحيانا، وتمثّل مرآةً للبطولة التي تحلّى بها الجاهليّ في الذّود عن كرامته ورفض الضّيم، وتأتي قيمة الشّرف ثالثاً، ويتبعها ما عرفه المجتمع الجاهليّ من قيم يصعب عدّها، وتختلف من قصيدة إلى أخرى.

ونحن في ترتيب القيم نعتمد على قراءاتنا في شعر كلٍّ من زهير بن أبي سلمى والأعشى، وعلى المقارنة بين مديحهما أيضاً، حيث تركا بصمة كبيرة في شعر الجاهليّة خاصّة والقصيدة العربية عامّة، مع تميّز كلٍّ منهما بقيم محدّدة كقيمة السّلام عند زهير مثلاً.

ولا ننسى ما تغنّى به النّابغة من أشعار في المديح، إلّا إنّها تبتعد عن البيئة التي عاينها كلّ من زهير والأعشى فكان لها خصوصيّتها في مديح ملوك المناذرة والغساسنة، وما اكتسبته من أسلوب حضريّ مختلف يقوم على مدح تفرّد الملك وتميّزه عن غيره من الممدوحين.

ليست هذه القيم ما اصطفاه الشّعراء في قصائدهم وحسب، بل هي ما اصطفاه الإنسان عموماً في العصر الجاهليّ، فالكرم والشّجاعة والشّرف والوفاء ....، هي المثل العليا التي تغنى بها هذا العصر حقيقة وخيالاً، واقعاً وفنّاً، وإنّ الشّاعر في تمجيده الممدوح إنّما يمجّد الإنسان المثال الذي ارتسمت صورته في ذاكرة ذلك العصر.

لقد أدرك الشّاعر الجاهليّ طبيعة الواقع الذي عايشه، ووعى ما قرّره مجتمعه من قيم الخير والشرّ، والجمال والقبح، وهذا بالضّبط ما نعنيه من أثر الوعي الجماليّ في إنتاج العمل الفنّيّ.

الحواشي:

[1] أوليدوف أ.ك، **الوعي الاجتماعي**، تر: ميشيل كيلو، مطابع المستقبل، بيروت، د ت، ص 99.

2 انظر: شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، دار المعارف، مصر، ط 7، د ت، ص 307.

3انظر: وهب روميه، بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي، دار سعد الدين، دمشق، 1997م، ص170.

4 زهير بن أبي سلمى، شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تح: د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ط 3، 1980م، ص 104، 105، 110، 111.

عفوا: أي يعطيك ما سألته سهلا بلا تعب، وقوله يُظلم أحيانا: يطلب منه في غير وقته فيحتمل ذلك، لا غائب مالي ولا حرم: لا يعتذر بغيبة المال ولا يحرم سائله، منكوبا دوابرها: أي قد دأبت السّير وباشرت قوائمها خشونة الأرض، دوابرها: مآخر الحوافر، الشّنون من الخيل: بين السمين والمهزول، الزاهق: السمين، الزهم: الكثير الشحم، الإمّة: النّعمة والحالة الحسنة، أي تنزع الخيل نِعَم أقوام لذي كرم وهو الممدوح، فتسلبهم نعمهم وتحوزها له، تآوى: أي تأوي النعم، البرم: الذي لا يدخل في الميسر لبخله، إصهار الملوك: مصاهرة الملوك.

5 المصدر السابق، ص 74، 75، 76. أغرّ أبيض: نقيّ من العيوب، الفيّاض: الكثير العطاء، العناة: جمع عانٍ وهو الأسير، الرّبق: حبل طويل فيه حلق، تجعل فيه رؤوس البهم، فضل الجياد: أي فضل الناس فضل الجياد على البطاء من الخيل، الممنون: المقطوع، النّزق: الذي يعطي ما عنده ثم يكفّ، المبتغون: الطالبون.

6 المرعي فؤاد، الجمال والجلال، دراسة في المقولات الجماليّة، دار طلاس، دمشق، 1991 م، ص 25

7 انظر: وهب روميه، بنية القصيدة العربية، ص170.

8 زهير بن أبي سلمى، شعر زهير بن أبي سلمى، ص 116، 118، 120. حشو الدّرع: لابس الدرع، دُعيت نزال: كانوا إذا ازدحموا تداعوا "نزال" فنزلوا عن الخيل، لجَّ في الذعر: تتتابع الناس من الفزع، حامي الذّمار: أي يحمي من يحميه من حُرمه، الجلى: النائبة الجليلة، أمين مغيّب الصدر: مؤتمن على ما يغيّب في صدره، والمعنى أنه لا يضمر إلا الجميل، الحوب: الإثم، صافي الخليقة: واسع الخلق، طيّب المخبر: حسن المخبر، الأجري: جمع جرو، وهو ولد الأسد،

ورد: تعلو لونه حمرة، الغثر: الغبر، أحدان الرجال: جمع واحد، أي يصطاد الرجال واحدا بعد واحد، الذخر: ما يدّخر لما بعد اليوم.

9 المصدر نفسه، ص 97، 98. متئد: يرتفع على تؤدة وتمهّل، الرجراجة: الخيل الكثيرة، الجول: الكثيرة الجائلة في كلّ ناحية، الجرد: الخيل القصيرة الشّعر، الأبابيل: جماعات تأتي من كلّ وجه، حومة الموت: معظمه، ثابت: رجعت، الحلائب: الجماعات، المقرفون: اللئام الآباء، العزل: لا سلاح معهم، الميل: جمع أميل، وهو الذي لا سيف معه، الساطع: المرتفع من الغبار، الغيابات: الغبرات، العثير والرّهج: الغبار أيضا.

10 انظر: بنية القصيدة العربية، ص 170.

11 زهير بن أبي سلمى، شعر زهير بن أبي سلمى، ص 237، 238، تنجو: تسرع، الأقتاد: جمع قتد، وهو خشب الرّحل، العيدية: النوق النّجائب، المنسوبة إلى حيّ اليمن، هم بنو العيد.

12 زهير بن أبي سلمى، شعر زهير بن أبي سلمى، ص 18، 19. المرجم: المظنون، نعرككم: تطحنكم، النّقال: جلدة تكون تحت الرّحى، غلمان أشأم: غلمان شؤم، أحمر عاد: جعل عادا مكان ثمود، وأراد عاقر الناقة، فتقطم: أي يتم أمر الحرب، تغل لكم: تغلّ لكم من الدّيّات بدماء قتلاكم ما لا تغل قرى العراق.

13 المصدر نفسه، ص 15، 16، 17. سحيل ومبرم: على كلّ حال، من شدة الأمر وسهولته، منشم: زعموا أنها امرأة عطّارة من خزاعة، فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها، على أن يقاتلوا حتى يموتوا، فضرب زهير بها المثل، واسعا: أي مكينا، على خير موطن: على خير منزلة، العقوق: قطيعة الرّحم، عليا معد: أشرافها، يستبح: يجده مباحا، يعظم: يجيء بأمر عظيم، تعفى الكلوم: تمحى الجراحات، بالمئين: من الإبل، يعني أنّ الدماء تسقط بالديات، ينجمها: أي تُجعل نجوما والنجم: الدفعة من الغرامة، والمقصود: تحمّل الدماء من لم يجرم فيها، كرما وصلة للرّحم.

14 أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين)، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 10، ط1، 1938م، ص 289.

15 سامي الدهان، المديح، دار المعارف، القاهرة، ط 5، د ت، ص 14.

16 ابن رشيق القيرواني (الحسن بن رشيق)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة، مصر، ج2، ط2، 1955م، ص 128.

17 المصدر السابق، ص 129.

18 النّابغة الذّبيانيّ (زياد بن معاوية)، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط3، 1996، ص 28. سورة: مكانة، يتذبذب: يتردد بين شيئين، يتحرك مضطربا.

19 المصدر السابق، ص 45، 47، 48. خير الناس: يعني النعمان نفسه، جاوز الحيّ سائرا: أخرج محمولا ليعلم بمرضه، وهنا إشارة إلى عظمة الملوك، ألكني: احمل إليه رسالتي، الغيوث البواكرا، كناية عن خيره الباكر السريع، الفلج: الظفر، كعبه: فضله، شرفه، ويقال: هذا رجل عالي الكعب، أي يوصف بالشرف والظفر، ربّ عليه الله: أسبغ، وأتمّ، ألفيته: وجدته، يبيد: يزيل، ويقضي المعابرا: السفن.

20 المصدر نفسه، ص 60، 61، 62. السّجل: الدلو، إلال: جبل بمكة، تجزية: ثواب، يقمّص: يثور، العدولي: السفينة المنسوبة إلى "عدولي" في البحرين، الخلج: السفن الصغيرة، المخيسة: المروضة، النواجي: السريعة العدو، القائنات: شديدة الحمرة.

21 المصدر نفسه، ص 75. لا يبرمون، لا يسأمون، الإمحال: القحط الشديد، الأدم: الجلد الأحمر، في اللأواء: في الأيام العصيبة، أحلام: عقول، المعقّة: سوء الأخلاق، الإثم: الذنوب.

22 المصدر نفسه، ص 30، 31، 32. عصائب: الجماعة من الطير، الضاريات: المدرّبة على الصيد من الكلاب أو الطيور، الدوارب: المدربات أيضا، بيض: السيوف اللامعة، رقاق المضارب: لها حد رقيق كرهف قاطع، فلول: ثلوم، قراع: قتال.

23 المصدر نفسه، ص 33.

24 المصدر نفسه، ص 58.

25 انظر، الجمحيّ (محمد بن سلام)، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، دار المدني، جدة، د ت، ص 65.

26 انظر: وهب روميه، بنية القصيدة العربية، ص 170.

27 الأعشى (ميمون بن قيس)، ديوان الأعشى الكبير، شرح: محمد حسين، مؤسسة الرسالة، ط2، د ت، 1968م، ص 65، وهوذة ملك نصرانيّ، كان ملكاً على اليمامة، وكان مكلّفاً بحماية قوافل كسرى بين الفرس واليمن، عاش حتى أدرك الإسلام، وكان أحد الذين دعاهم رسول الله إلى

الإسلام، فأبى، لأنه اشترط أن يكون له الملك من بعده، وإلّا قصده وحاربه، جوّ: بلد هوذة في اليمامة، أصفدني: أعطاني، الزّمانة: الضعف والعاهة، وليدة: جارية، أبو قدامة: هو هوذة.

28 المصدر السابق، ص 29، 31. وقيس بن معد يكرب هو كندي من بني الحارث بن معاوية، ملك يمانيّ، والد الأشعث بن قيس، مدحه الأعشى في قصائد كثيرة، استمرّ في الحُكم عشرين عاما ثم مات مقتولا في إحدى وقائعه مع قبيلة مراد. النّعل: ما يُلبَس لِيَقي الخفّ والحافر، القبال: زمام النعل، النبيط: مكان في العراق، تجَّهَمَ: استقبل بوجهٍ كريهٍ مكفهرّ، الهجين: الخِيار من كلّ شيء، العُوْذُ: الحديثات النِتاج، زَجّى الشيء: دفعه برفق، أسا الجرح: داواه.

29 المصدر نفسه، ص 39. جَرَمَ النّخل: جمع ثمارها، الخصاب: النّخل كثير الحمل، يردى: يعدو، سنابك سلطات: أي طوال، لثم: تلثمها الحجارة وتلكمها، سنابكه: مقدمة الحافر، مدارى الظباء: قرونها، أشمّ: مرتفع.

30 انظر: وهب روميه، بنية القصيدة العربية، ص 170.

31 الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص 11، والأسود بن المنذر هو واحد من أخوة النعمان بن المنذر، وله وقعة مشهورة ببني محارب بن خصفة (من قيس عيلان) أشار إليها الأعشى في قصيدته، كبا الوجه: تغير لونه من الفزع، المقتال: المحتكم، التالد: القديم، العتيق: الكريم من كل شيء، القباب: جمع قبة وهي الخيمة الضخمة، الآكال: قطائع كانت الملوك تقطعها للأشراف، الميل: جمع أميل، وهو الذي يميل على السّرج من الجبن، عواوير: جمع عوار، وهو الجبان الضعيف، الأكفال: جمع كفل بكسر الكاف وهو من لا يثبت في الحرب، وسوق: جمع وسق وهو الحمل، الكرّة: البعر يفتّت ثم يذرّ على الدروع بعد أن تدهن بالزيت حتى لا تصدأ، الطلال: المطر الخفيف، المسند: المنسوب لغير أبيه، الزّمال: الضعيف، الغدا: البُكرة، غبّ الشيء: عاقبه، صقل الناقة: أضمرها

32 الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص2.

33 إياس بن قبيصة الطّائيّ يمنيٌّ من طيّء، استعمله كسرى على الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر، وظلّ عليها أربعة عشر عاما حتى قَدِم إليها خالد بن الوليد سنة 12هـ.

34 الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص 199. المجر: الجيش العظيم، البلقعة: الأرض القفر لا شيء فيها، القتام: الغبار الأسود، الجمام: جمع جَم وهو الكثير من كلّ شيء، يهديه: يقوده، مطَّرِد: رمح مستقيم، ممرّ: صلب مفتول، كبا يكبو: انقلب على وجهه، تَروح: تعود آخر النهار،

السعالي: جمع سِعلاة وهي الغول، السلاما: الحجارة، هضم الشيء: كسره، صدر الشّيء: أعلاه ومقدمه، أخلصه: أصفاه، الصّقال: الجلاء، مشهوراً، مرفوعا.

35 انظر: بنية القصيدة العربية، ص 170.

36 الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص 297. نماه: رفعه، انتكس: وقع على رأسه، والمقصود هنا: أنّه لم يقع في خطأ، ولم يرتكب ما يشين، ضرع من الشيء: دنا منه، ململمة: مدورة مجتمعة، يقصد بذلك صخرة ملساء تزلق لوقعها الأقدام، الأرح: الوعل المنبسط الظلف، المخدّم: المحجّل، الذي يستدير التحجيل بأرساغ رجليه دون يديه، والتحجيل بياض يحيط بالأرجل.

37 المصدر نفسه، ص 19. المنن: جمع منّة وهي النعمة والعطاء، بنو معاوية: رهط قيس بن معد يكرب، السّنن: الوجوه والطبائع، استضاف به: استغاث، هادن: ثابت، الرّزين: الوقور.

38 المصدر نفسه، ص 7، 9، 11. الانتجاع: في الأَصل طلب الكلأ، ويقصد به هنا التماس الخير والرزق، الندى: الكرم، النبع: شجر صلب تتخذ منه القسيّ ومن أغصانه السهام، المحال: العقوبة والمكر، النّقى: الحذر، أسا الجرح: داواه، الصّرع: داء يبطل الحسّ ويمنع الحركة، ويقصد به الشاعر التيه والمكر، العذرة والمعذرة والعذرى بمعنى واحد، حبل غير موثوق به، الأريحيّة الارتياح لفعل الخير، صلت: ماض، ومنه سيف صلت أي متجرد من غمده، ركودا: لا يتحركون، كبا الوجه: تغيّر لونه من الفزع.

39 المرعي، فؤاد، الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام، دار الأبجديّة، ط1، دمشق، 1989م، ص 24.

40 الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص 89. تجانف: تميل وتنحرف، جلّ الشيء: معظمه، بلاد اليمامة بين نجد واليمن.

41 المصدر نفسه، ص 239.

42 المصدر نفسه، ص 359. عدّ هذا: دعه وتجاوزه إلى غيره، الدهقان: كلمة فارسيّة تعني التاجر أو القويّ على التّصرّفِ وحده، ويعني بدهقان اليمن قيس بن معد يكرب، منفوس الثّمن: غاليه.

43 أميرة حلمي مطر، مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1989، ص 32.